جامعة الانبار
كلية التربية للبنات
د. إنعام حميد شرموط

هولاكو والقضاء على الخلافة العباسية

بعد القضاء على الاسماعيلية شرع هولاكو بتنفيذ القسم الثاني من حملته العسكرية والتي تستهدف الخلافة العباسية ولاهمية تلك الحملة حرص القآن منكو ان تجري الاستعدادات لها على ادق واعلى المستويات العسكرية ولأنه كان يدرك ما سيعترض اخاه هولاكو من صعاب ومشاكل جمة لذلك عمل على توفير مستلزمات نجاحها التي كانت من صلاحياته وحده لذلك اخذ على عاتقه بموجب قواعد الياسا توفير كل ما يكفل للحملة من نجاح والتي من ابرزها ان يكون قوام الجيش ضخما فقد سيّر معه جيوش كبيرة وان يكون معه امراء منحدرين من نسل جنكيزخان فاختار منهم خمسة ليكونوا حرساً خاصاً لهولاكو فأن ما جرت عليه العادة في اية عملية عسكرية كبيرة تقوم بها الحكومة المغولية على كل امير يحكم اراضي اميرية مغولية بان يساهم في تلك الحملة برجلين من عشرة رجال يسكنون في مملكته فقد ساهم في هذه الحملة "باتو" الذي سمى صانع الملوك والذي يعتبر الرجل الأسن والمرجع الاول بين افراد عائلة القآن العظيم بكتيبة عسكرية كبيرة اسند قيادتها الى احد احفاد توشي ابن جنكيز خان. كما انظم الى جيش هولاكو امراء اخرون من الاسرة المغولية من ابناء واخوان القآن.

كما عمل (منكو) على استجلاب مهندسين خبراء فنيين من ذوي التخصص في عمليات الحصار حيث استقدم اولئك المهندسين والاتهم الخاصة معهم والتي ذكر عددها المؤرخين بالف اسرة من صناع المنجنيقات واصحاب الحيل في اصلاح الآت الحرب حيث التحقوا بحملة هولاكو ليقوموا بتخطيط وتنفيذ كل ما يتعلق بشؤون الحصار لاي مكان حصين يصعب اقتحامه بالاضافة الى فريق اخر من الخبراء المختصصين في الات المنجنيق واخرون في الات القاذفة للنفط والمواد المحترقة الاخرى وخبراء وفنيون في الات اخرى تسير على عجلات وظيفتها قذف الاسهم النارية. كما بعث بالرسل والمرشدين لمسح الطرق وتحضيرها فاقيمت الجسور على مجاري الانهار السريعة وهيئوا القوارب والسفن في المواقع التي يحتاج اليها الجيش من اجل العبور.

اما عن تموين الجيش فقد أمر منكو بأن يخصص لكل جندي مائة تغار* من الدقيق ((ربما كانت تعني شيء واصبحت تعني شيء اخر فلا يعقل ذلك)) وقربة من النبيذ فضلاً عن قطعة من الجلد يستخدمها لباس له وكما امر بان توضع جميع الاراضي الواقعة في مسيرة الجيش من نقطة الانطلاق في منغوليا حتى حدود تركستان تحت الحظر أي عدم السماح بالرعي فيها لكي تبقى الارض مخضرة ومراعيها غنية بالعلف تكفي لدواب الجيش الغازي بالاضافة الى التعليمات التي تقضي بان يقوم امراء الاطراف من المغول والمسلمين بتوفير جميع ما يحتاج اليه الجيش من مؤن خلال المرور باراضيهم بالاضافة الى تجهيزهم بالسفن لعبور الانهار ان تلك الاستعدادات والاجراءات الهائلة التي قام بها منكو قآن في دعم الحملة تعد اهم مصادر القوة التي استند عليها هولاكو والذي كان دوره مقتصرا على الامور التنظيمية والادارية خصوصاً بعد ان علم ان البلاد التي سوف يقتحمها سيكون مسؤولا عن ادارتها بالرغم من ان الجيش تم تشكيله على اساس الروابط القبلية حيث مثلت فيه كل العناصر المغولية والتركية الا ان هولاكو تمكن من تحقيق الانضباط بين افراد جيشه وايجاد وحدة متجانسة من هذه المجموعات القبلية فهو كان ابنا للمدرسة الجنكيزخانية في تنظيم جيشه اذ اعتمد على النظام العشري

الذي كان سائدا من نظام عام ظل متبعاً في الجيوش المغولية منذ ايام جنكيز خان ومما ساعد هولاكو كثيرا في مهمته ان المغول عرفوا بالطاعة العمياء لقادتهم الى حد التضحية بالنفس.

ذكر عدد من المؤرخين ان قوات هولاكو بلغت ما يقارب مائتي الف مقاتل ولم يكن هذا العدد الضخم مقصورا على عنصر المغول فقط بل كان يضم عددا من الامراء المسلمين والمسيحين الذين دخلوا في طاعة المغول واسرعوا في تنفيذ اوامرهم واثبات اخلاصهم هذا بالاضافة الى عدد من المتطوعة.

وقد يكون ضخامة عدد قوات المغول فيه شيء من المبالغة من قبل المؤرخين فالبعض ذكر عددهم الصريح والبعض الاخر اكتفى بوصفهم فقد قال عنهم ابن الفوطي انهم اقبلوا كجراد منتشر وانه أي ((هولاكو)) جاء بجيش لا يحصى عدده ولا ينفذ مدده اما ابن تغري بردى فقال لقد عظم امره وكثرت جيوشه من المغل والتتار ولا زال امره في زيادة حتى ملك مدينة الموت كما وقد بالغ هولاكو نفسه بعدد قواته ففي احدى رسائله للخليفة قال له: (اني متوجه الى بغداد بجيش كالنمل والجراد).

لقد كانت لكلا الطرفين مبرراته في المبالغة بعدد قوات الجيش المغولي اما مؤرخونا فارادوا اعطاء تبريرات لتخاذل المسلمين والخليفة في الدفاع عن حاضرتهم وعدم اتخاذ التدابير اللازمة لمثل تلك المواقف.

اما هولاكو فأراد ان يبث الرعب والخوف في صفوف اعداءه وهذا جزء من الحرب النفسية التي اتبعها المغول في معاركهم التي خاضوها لقد عول العديد من مؤرخينا على ضخامة القوات المغولية ليبرروا خسارة جيش الخلافة من دون الوقوف على اوضاع الخلافة المتدهورة وقلة امكانياتها الاقتصادية والعسكرية وعدم اخذ الموقف بصورة جدية والاستعداد للمواجهة فمن الناحية الاجتماعية كان الصراع الطائفي والمذهبي قد مزق المجتمع البغدادي قبيل الغزو المغولي اما من الناحية الاقتصادية فقد تعرضت بغداد وخصوصاً في فترة الخليفة المستعصم الى كوارث طبيعية جمة تمثلت بكثرة الفيضانات التي تؤدي الى تدمير المحاصيل الزراعية وانهيار السدود وبالتالي دمرت العديد من المباني والمنازل والمساجد واتلفت الطرقات وظهرت الافات الزراعية كالحشرات والجراد.

كما ان الصراع الطائفي والتناحر المذهبي اثر بدوره على الجهاز الاداري للخلافة فقد اصبح مشلولاً تماماً وذلك نتيجة للانشقاق والحزازات الشخصية التي تقع بين كبار موظفي الدولة الرسمين بزعامة وزير الخليفة وقائد جيشه.

اما من الناحية العسكرية فان جيش الخلافة قبيل الغزو المغولي لم يكن بحالة يحسد عليها لامن ناحية العدة ولا العدد فقد كان عبارة عن جيش صغير لا يتجاوز تعداده عن بضع الاف من اجناس مختلفة فقد اهمل الخليفة حال الجند ومنعهم ارزاقهم وبلغت حالة جيش الخلافة بالذات مبلغا من الذل والهوان حتى استعطى كثيرا منهم في الاسواق وابواب المساجد والبعض الاخر فضل الالتحاق بصفوف المغول هربا مما هو فيه. نستنتج من هذا ان العوامل الداخلية هي من الاسباب الرئيسية لسقوط الخلافة اكثر من الخارجية.

الخليفة المستعصم بالله ومدى مسؤوليته عن سقوط الخلافة

اختلف المؤرخون في وصف شخصيته ومدى مسؤليته عن سقوط الخلافة العباسية فمنهم من مدحه واثنى على سيرته بقولهم انه كان رجلا عابداً صالحاً كريم النفس لين الاكناف لا يتعرض لشيء من المنكر ولم يعص الله قط وكان صبورا على الشدائد والمستعصيات.

وعلى النقيض من اراء هؤلاء فقد كثر ذاموه من المؤرخين الذين حملوه المسؤولية الكاملة لما جرى للخلافة الاسلامية وحاضرتها بغداد نتيجة لضعف شخصيته وانشغاله بملذات الدنيا وترك امور الخلافة بيد الاخرين وابرز

ما قيل فيه انه ضعيف العقل قليل العزم كثير الغفلة عن امور المسلمين ولا يفكر في عواقب الزمان محباً للاموال والنساء ففي الوقت الذي كان التتر يحاصرون بغداد ويحيطون بدار الخلافة ويرشقونها بالنبال ذكر ان جارية كانت تلعب بين يديه فاصابها سهم فقتلها وهي ترقص له فأنزعج الخليفة لذلك في حين يرى احد المؤرخين ان السهم اصاب احدى بناته في شرفة القصر اثناء انشغاله بقراءة القرآن الكريم اما مؤرخنا الاربلي فنجد كتاباته تحمل تناقضاً ففي مواضع يمدحه ويشيد بتدينه وخلقه وفي مواضع اخرى يذكر الذميم من صفاته نستنتج من هذا انه قد يكون يتصف بالصلاح والتقوى وحسن السيرة ولربما كان يمكن ان يكون حاكماً ناجحاً في ظل ظروف عادية وهادئة ولكنها كانت ابعد من ان تجعل منه رجل الساعة في هذه الظروف المميتة التي كان يتجاوزها العالم الاسلامي فقد اثبت انه لم يكن بالمستوى المطلوب فالاحداث الكبيرة التي تمر بها الخلافة هي فوق طاقته وقدرته فهو لم يتخذ الاجراءات اللازمة والحاسمة لمواجهة الخطر المغولي فكان من المفروض ان يكون اكثر تيقظا وحزما ويتخذ من الاسباب ويعلن حالة الاستنفار في جميع ارجاء البلاد التابعة له ويسخر كل موارد الدولة لدرء الخطر وكان عليه ان لا يترك امور الدولة ومؤسساتها بين ايدي جماعات متناحرة طائفيا ومذهبيا دون رقابة منه فقد قام هؤلاء باستغلال غفلته لمصلحتهم فهو بذلك يتحمل الجزء الاكبر من المسؤولية لانه لم يتخذ قراراً حازماً للتصدي مثلما قام به السلطان قطز في معركة عين جالوت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م والتي سنتناولها لاحقا.

سقوط الخلافة

تبادل هولاكو مع الخليفة المستعصم بالله الرسائل عندما تحرك الجيش المغولي وهو في طريقه لحصار بغداد فبدأ هولاكو بارسال رسالة عنفه فيها بشدة لعدم ارساله المعونة التي طلبها في حربه ضد الاسماعيلية ثم وعده بالعفو اذا هدم اسوار وردم الخنادق التي تحمي بغداد وطلب من الخليفة المثول بين يديه وان تعذر الحضور يرسل احد الثلاثة الكبار من رجال دولته نيابه عنه، والذين هم كل من الدويدار الصغير* والوزير ابن العلقمي وسليمان شاه وتوعد الخليفة بالويل والثبور ان لم يستجب اما رد الخليفة عليه فكان يحمل روح التحدي والتهديد لهولاكو حيث حذره من التعرض لأسرة بني العباسي المقدسة مستند بذلك على اعتقاد بان كل من يتعرض للخلافة تصيبه اللعنة وآخرهم خوارزمشاه ونتيجة لضعف الخليفة وعدم اتخاذه رأي حازم واخذ المسألة بجدية اكبر فقد كان كبار اركان دولته هم من يقرر شأن الخلافة فانقسم هؤلاء الى فئتين الاولى يمثلها امراء العسكر وهي المتنفذة كانت لأسباب واضحة لا تحبذ اطلاقا فكرة مهادنة هولاكو او الاستسلام لشروطه وترى التصدي له وقتاله امر لا مفر منه وكان على راسها الدويدار الصغير وسليمان شاه والفئة الثانية كانت تريد التصرف على اساس المهادنة والتفاوض مع هولاكو وعلى رأسها الوزير مؤيد الدين اين العلقمي

ويبدو ان رد الخليفة لم يعجب هولاكو لذلك قرر الزحف على مدينة بغداد وقبل المسير طلب من المنجمين التنبؤ بمستقبل الحملة ومصيره هو شخصياً ثم احال الطلب الى كبير المنجمين حسام الدين الذي حذره من هذا العمل وتنبأ بان الطالع ينذر بوقوع ستة كوارث عظيمة ((والكوارث الستة هي: ١- ان تنعق الخيول كلها ويمرض الجنود. ٢- ان الشمس لا تطلع. ٣- ان المطر لا ينزل. ٤- تهب ريح صرصر وينهال العالم بالزلزال. ٥- لا ينبت النبات في الارض. ٦- ان الملك الاعظم يموت في تلك السنة)) تشمل الطبيعة وهولاكو شخصيا غير ان هولاكو طلب منه أدلة قاطعة وحجج دامغة وبراهين ساطعة واثبات ما يقول فعجز عن ذلك، وحينئذ أمر ان يحضر الخواجة نصير الدين الطوسي* فاستطلع رأيه في القضية قال ان رأي حسام الدين غير صحيح انما انت سوف تكون خليفة بمكانه مستندا بذلك على اتفاق علماء جمهور المسلمين بان اكثر الصحابة قتلوا ولم يقع فساد في الكون كما وقد قتل العديد من خلفاء بني العباس ولم يحدث أي خلل وبذلك طمأنه وشجعه على الاقدام

لغزو بغداد واحتلالها وفي منتصف شهر محرم سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م نزل هولاكو على بغداد وكان معه مجموعة من القواد العسكريين امثال (بايجو نوين وسونجاق نوين) وتقدم جيش الخلافة بقيادة الدويدار الصغير وسليمان شاه واشتد القتال بين الطرفين فانكسرت عساكر المغول وقتل منهم الدويدار عدد كثير وهو ما زال يتبعهم الى اخر النهار ثم اشار عليه احد الامراء بان يثبت مكانه ولا يتبعهم فلم يصغ اليه الى ان ادركه الليل وقد تجاوز نهر ببزد جيل فباتوا هناك وعندما اصبحوا وجدوا ان النهر قد فاض عليهم وملات الصحراء فلم تستطيع الخيول السير فيه فاقام المغول بقتلهم فالقى البعض منهم في دجلة ودخل بغداد من نجا منهم بعد ان فروا مع الدويدار على اقبح صورة.

ان هذا الانتصار الذي حققه الدويدار الصغير كان يمكن ان تستثمره الخلافة وتحقق المزيد لولا ان الجيش لم يكن بعدة او عدد كافي ويذكر احد المؤرخين ان هذا النصر لم يرق لأبن العلقمي لذلك ارسل اصحابه لقطع شط دجلة فخرج ماؤها على عساكر بغداد وهم نائمون فتشجع المغول لما حصل فرجعت عساكرهم للانتقام من جيش الخلافة التي هلك معظمها.

ان انتصار الدويدار الصغير على جيش المغول يثبت انه كان بالامكان تحقيق النصر الكامل لو انه تريث في ملاحقة المغول وهكذا كانت بداية النهاية للخلافة العباسية التي لم تأخذ المسألة على محمل الجد واستندت على اللعنة التي تصيب كل من يحاول المساس بقدسية الخلافة اما مسالة خيانة ابن العلقمي فاغلب المصادر الاسلامية تميل الى اتهامه صراحة وتمثلث خيانته بمجموعة من الاتهامات ابتداءاً بمراسلاته مع المغول التي اختلف المؤرخون في تحديدها فمنهم من ذكر ان مكاتبات ابن العلقمي لهولاكو كانت قبيل سقوط الخلافة العباسية بقولهم: اخذ يكاتب التتار ويراسلهم ويطمعهم بالمجيء الى العراق واخذ بغداد لكي يزيل دولة بني العباس واقامة خلافة علوية واحد المؤرخين قال ان المراسلة كانت مبكرة في سنة (٦٤٤هـ) أي بعد سنتين من تولي ابن العلقمي الوزارة فقد قدم رسولان من المغول فاجتمعا مع الوزير اما التهمة الثانية لابن العلقمي هي قيامه هو شخصياً او بتسخير جماعة لقطع دجلة واغراق عساكر الخلافة بقيادة الدويدار الصغير اثناء مواجهته مع المغول فتحول النصر الى هزيمة.

في حين كانت تهمته الثالثة هي كتم الاخبار عن الخليفة فكان يحجم ايصال المكاتبات التي تحذر الخليفة من المغول وتلفت نظره وتنصحه فكان يقوم بقراءتها ويرد عليها بما يراه مناسباً لخدمة غرضه.

الا ان تسريح جند الخلافة تبقى من اهم التهم التي وجهت لابن العلقمي وقد تناولتها اغلب المصادر الاسلامية بقولها: ان ابن العلقمي كان يجتهد في صرف الجيوش واسقاط اسمائهم من الديوان فكانت العساكر في اخر ايام المستنصر قد بلغت قريب المائة الف فلم يزل يقللهم الى ان لم يبقى سوى عشرة الاف ولانه كان ذكيا فأنه لم يسرح الجند دفعة واحدة انما كان على عدة مراحل بحجة توفير مصروفاتهم وذلك لان اسقاطهم دفعة واحدة يثير الشبهات والشكوك حوله.

واخيرا قام ابن العلقمي بنهي اهل بغداد عن المقاومة بحجة انه سوف يعقد الصلح فتوقف اهل بغداد في حين بقى الجيش المغولي يسدد ضرباته باتجاه بغداد كما واقنع الخليفة بالخروج من بغداد ومقابلة هولاكو بحجة انه يريد الصلح وهذا الصلح سوف

يتوج بالمصاهرة بتزويج ابنته من ابنك على الرغم من وضوح الحقيقة وتظافر المصادر على ذكر هذا الموقف لابن العلقمي ألا انه ثمة اراء غريبة ظهرت من قبل المؤرخين القدماء والمحدثين للدفاع عن ابن العلقمي وهم قلة قليلة حيث برؤه من تهمة الخيانة والقوا التبعية كلها على ضعف الخليفة ونفاق الامراء وقواد الجيش وعدم وحدة الصف فيما بينهم وعلى رأس هؤلاء ابن الطقطقي الذي مجد بشخصيته ونفى عنه التهمة وكذلك رشيد

الدين الذي لم يتوانى عن مدحه كلما ذكر اسمه وينفى عنه تهمة الخيانة بقوله انها من تدابير الدويدار الصغير الذي يجمع حوله السفلة والرعاع وانه هو من اراد ان يتآمر على الخليفة بأتفاق مع طائفة من الاعيان.

اما مؤرخينا المحدثين فقد كان دورهم اكبر في محاولة تبرأت ابن العلقمي مستندين بذلك على مجموعة امور منها ان ابرز مؤرخي المغول المعاصرين وغير المعاصرين لم يتطرقوا لمسألة الخيانة امثال الجويني الذي يعتبر المصدر الاول لتاريخ المغول فهو كان شديد الصلة بهولاكو ورافقه عند زحفه الى بغداد، وكذلك رشيد الدين الذي كان وزيرا في بلاط سلاطين المغول والذي لم تكن له أي مصلحة في الدفاع عن ابن العلقمي وقالوا ان سبط بن الجوزي المتوفي سنة ٦٥٤هـ اثنى عليه ولم يتطرق لمسألة الخيانة ان الرد على هؤلاء يكمن في كون ان ابن الطقطقي الذي حاول جاهدا دفع تهمة الخيانة عنه انه على نفس مذهب ابن العلقمي اما بالنسبة للجويني ورشيد الدين فهم اشهر مؤرخي المغول وابن العلقمي اصبح من اتباع المغول فمن غير المعقول ان يكتبوا ضده وهم عرفوا بانهم جملوا تاريخ المغول واظهروهم بمظهر الفاتحين المحررين.

اما بالنسبة لسبط بن الجوزي فأنه مات قبل سقوط الخلافة بسنتين أي قبل وقوع الاحداث ودور ابن العلقمي لم يتضح بعد ومن الامور الاخرى التي حاجج بها هؤلاء المؤرخون هي ان الخليفة الناصر لدين الله تعرض لنفس التهمة التي تعرض لها ابن العلقمي وهي مراسلة المغول وقالوا ايضاً ان غزو العراق هو تحصيل حاصل للمخططات المغولية وانها جاءت بناءاً على اوامر عليا اصدرها امبراطور المغول منكوقاآن فلا حاجة لهم بمن يستدعيهم اما ردهم على التهمة التي تقول انه منع وصول المكاتبات الى الخليفة والتي تحذره من الخطر المغولي فهي مردودة لأن الوزير كان ضعيفاً غير مسموع القول وان تاريخ تهديد المغول للعراق هو قديم منذ ايام الناصر بالاضافة الى ان هذه الامور غالباً ما تكون من اختصاص الفئة العسكرية والوزير كان مدني. اما بخصوص تهمته بتسريح جيوش الخلافة التي كانت كبيرة من قبل فيقولون ليس هناك دليل يثبت ان للخلافة جيش كبير فقد كان الناصر اشهر الخلفاء العباسيين بالامور العسكرية ورغم ذلك لم يستطيع الوقوف بوجه الخوارزميين وهذا دليل على قلة العدد والعدة في جيش الخلافة وقالوا أيضا اين كان مستشاري الخليفة العسكريين امثال الدويدار الصغير وسليمان شاه وغيرهم عندما اقنع الوزير ابن العلقمي الخليفة بصرف جنود الخلافة والخطر المغولي يهددها، وان نجاته من القتل بعد سقوط الخلافة ومشاركته في تنظيم بغداد لايعني ذلك دليل على خيانته فقد نجا غيره من العلماء وشاركوا في العديد من الوظائف.

واخيرا يمكن القول ان خيانة ابن العلقمي هي حقيقة لايمكن انكارها لأن مصادر ادانته هي اكثر وثوقاً واشد صراحة من مصادر تبرئته الا اننا لايمكن القول انه كان السبب الرئيس او الوحيد في سقوط الخلافة العباسية فالخليفة يتحمل جزء كبير منها وقادة الدولة المتناحرين بالاضافة الى الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت تعاني منها الخلافة ولا ننسى مخططات المغول الرامية الى السيطرة على العالم.

وقد اختلفت الروايات في تقدير عدد من قتل في بغداد على يد هولاكو فالمجازر التي ارتكبها والدماء التي اريقت والخراب الذي خلفه هولاكو دفعت بعض المؤرخين الى المبالغة في عدد وأرقام الضحايا فمنهم من قال ان عدد القتلى بلغ الفي الف واخر قال الف الف وثمنمائة الف وقيل الف الف ورواية رابعة تقول كان يستشهد من المسلمين ثمنمائة الف في كل اسبوع وظل يرمي بغداد اربعين يوما بكل شدة ودون هوادة ويسلط نيرانه عليها كالصواعق الا ان خصباك يرى انه من غير المعقول ان يكون سكان بغداد في ذلك الوقت يقدرون بهذا الحجم لذلك نجد ان الرواية التي تذكر ان عدد القتلى هو ثمانمائة الف هي الارجح.